



مجلة الآداب



مجلة نصف سنوية علمية محكمة - تصدر عن كلية الآداب - جامعة إفريقيا العالمية

**دور علماء تنزانيا في نشر الحضارة الإسلامية في دول البحيرات العظمى
(الشيخ حسن بن عمير الشيرازي أنموذجاً)**

د. عيسى الحاج زبيدي

ملاحظات لغوية حول سيرة الشيخ حمد النحلان في طبقات وضيف الله

د. عبد اللطيف سعيد

**وجهة نظر الاختصاصيين الاجتماعيين للبرامج الإرشادية المنفذة في تعديل سلوك الطلاب
(دراسة ميدانية على مدارس مديرية صنعاء القديمة)**

أ. إشراق عبد الولي فارح العودري

الصلابة النفسية وعلاقتها بالقلق لدى طلاب الجامعات الحكومية بولاية الخرطوم

د. أمل بدرى النور بلال
أ. نهى عبدالله أحمد حبيب

**التحليل الهيدروجيوميورفولوجي لحوض وادي المقدم
(دراسة باستخدام نظم المعلومات الجغرافية)**

د. عمر عبد الماجد سيد أحمد
أ. حسين سالم حسين
أ. مزمل الرئيس أحمد علي

استدعاء الماضي لخدمة الحاضر

أ.د. يوسف مختار الأمين*

اطلق الاديب البريطاني الشهير جورج اورويل فى 1949 مقولة وجدت رواجاً واسعاً فحواها أن "الذي يتحكم فى تشكيل رؤية ملزمة للماضي يتحكم تلقائياً فى المستقبل والذى يتحكم فى الحاضر يتحكم بالضرورة فى الماضي" وهذا مثل قول البعض ان التاريخ يكتبه المنتصرون. فلماذا يلجأ المنتصرون او المستضعفون الى التاريخ لتحقيق اهداف يرونها ضرورية لحاضرهم ومستقبلهم على السواء. العودة الى الماضي او استدعاء بعض جوانبه يتم كما يتفق الكثيرون لىخدم أهدافاً وطنية تجمع الامة ولتوليف مرجعية ايدولوجية تستمد منها الطبقات المتنفذة فى مجتمعاتها الشرعية والقوة للاستمرار فى تثبيت النظم والمكتسبات . والتاريخ الثقافى للانسان كما هو معلوم يمتد منذ اقدم عصور ما قبل التاريخ (نحو ثلاثة مليون سنة) حتى وقتنا الحاضر. ويأتى التعرف على جوانبه المختلفة من خلال نتائج البحوث العلمية فى مختلف ضروب العلوم الانسانية والطبيعية ويأتى فى مقدمها الآثار والانثروبولوجيا والتاريخ.

تخبرنا نتائج هذه الدراسات من مداخل وتوجهات منهجية ونظرية مختلفة عن تطور المجتمع الانسانى من نشأته فى حقبة ومستويات حضارية متعاقبة وما الى اليه فى وقتنا الحاضر. ونعرف أيضاً على رؤية الافراد والمجتمعات لماضيها وحاضرهما والانتماء والهوية الوطنية والثقافية وتمتين العلاقات الاجتماعية من خلاله. وعبر هذه المسيرة الطويلة من التاريخ ترسخت مفاهيم الحقوق والحياة وحماية الموارد وتكوين الانظمة الاجتماعية والسياسية.

ويتناول الكاتب فى هذه العجالة مساهمة علم الآثار ودوره فى تشكيل الواقع الثقافى والاجتماعى والسياسى للمجتمعات المعاصرة ضمن المعارف الانسانية

* رئيس قسم الآثار كلية الآداب جامعة افريقيا العالمية

المذكورة. و يجدر القول ان الانتاج المعرفي الاثاري ليس بعيدا دائما عن المؤثرات السياسية والاجتماعية السائدة وقت اجراء البحوث الاثرية مثلما انه ليس هنالك حياد مطلق وبالتالي فان تاريخ علم الاثار يوضح ان كثيرا من اعلام الاثاريين قد صُـبغت تأويلاتهم للدليل الاثري منطلقاتهم الفكرية أو تلك الايدولوجيا التي فرضتها السلطة السياسية القائمة. ومن جهة اخري تشغل المخلفات الاثرية سواءً اكانت مباني شاخصة او تلك المعروضة فى المتاحف حيزا كبيرا فى ذاكرة الناس، فينظرون اليها من زوايا مختلفة بقدر ما يتعرضون اليه من تأثيرات موجهة من الاجهزة الرسمية عبر وسائل الاعلام او مناهج التعليم.

ومن الملاحظات المهمة فى تاريخ علم الاثار ارتباطه الوثيق ايجابا او سلبا بقضايا الوطنية والهوية الثقافية.ففى اوربا، على سبيل المثل و حيث نشأ علم الاثار كان رواد الاثار يعتمدون مبادي التصنيف والمقارنة لمجاميع المخلفات الاثرية وخصوصاًصها الفنية والشكلية اضافة للغات القديمة الي تم قراءتها وخلصوا من ذلك الى ان اوجه الشبة والاختلاف فى الموروث الحضارى تحدد الفواصل بين الحضارات القديمة.وبناء على ذلك ساد الراي القائل بان اصحاب الثقافة الواحدة ينتجون مواد وانظمة اجتماعية متشابهة بل انهم ينتمون الى اصول عرقية واحدة وبقدر امتداد هذه الظواهر جغرافيا تمتد رقعة حقوق الجماعات فى استغلال تلك المناطق. وهكذا صار هناك ارتباط بين الابنية الثقافية التي قدمها علماء الاثار وبين نشـاط القوي الفاعلة فى المجتمعات الحديثة الهادفة الى تكوين الدولة الوطنية وحدودها وكما هو معروف فقد تحقق ذلك عبر حروب وصراعات استمرت لفترة طويلة. ومن هنا نبغ دور علم الاثار فى مجالات الهوية الوطنية والسياسة. ولا يوجد اليوم بلد يخلو من الدعوات الهادفة الى ايجاد علاقة مباشرة مع الماضي ان كان ذلك الماضي حقيقة مؤكدة او هو متخيل لاستخدامه فى تحقيق اغراض انية.فيؤر الصراع بين الدول او بين فئات داخل البلد الواحد اصبحت كثيرة وعادة ما يكون التاريخ اداة فى هذا الصراع لتأكيد الهوية و الحقوق. ان هذا الامر ليس بجديد اذ تدل الشواهد ان المعلومات المستمدة من الاثار والتاريخ القديم قد استُخدمت منذ قرون لاغراض قد

تكون نبيلة او سيئة. ولنأخذ امثلة محددة ندلل بها على استعادة الماضي البعيد لخدمة الحاضر المعيش.

يبدو ان انصاع مثال لسوء استخدام الماضي يتمثل فى حالة المانيا النازية حيث تم تحوير وتزييف التاريخ القديم لاثبات تفوق الجنس الارى عرقيا وحضاريا. وفى الواقع لم يكن هذا التيار جديدا بالكامل اذ بدأ مع اطروحات بعض اثاريى القرن التاسع عشر ولكنه كان خافتا على كل حال . وبعد صعود حزب العمال القومى الاشتراكى بزعامة ادولف هتلر فى 1933 اشتدت النزعة العنصرية الارية والرغبة فى السيطرة على الموارد والسلطة الكاملة حيث ابيدت الاقليات وزحفت جيوش النازى لاحتلال الدول المجاورة. ولاتمام هذه المهمة كان من الضروري خلق اسطورة تاريخية تعبرعن حق الشعب الارى فى السيطرة على الاوضاع. وهنا كان علماء الآثار ضالة النخبة النازية. فبعد تكوين جمعية تراث السلف صدرت الاوامر المباشرة لعلماء الآثار لتوجيه ابحاثهم نحو ابراز تاريخ واثار الشعب الارى. وبلغ الامر مداه بأن تولي هملىر رأس القوات السرية الخاصة الاشراف المباشر على البحوث الاثرية. ربما كان هذا أسوأ محاولة لاستخدام الآثار لاهداف سياسية لم تجد قبولا على نطاق واسع.

وعلى شاكلة النموذج الالمانى يأتي مثال الصراع العربى الاسرائيلى الممتد لعدة عقود الذى استخدم فيه الطرفان الآثار وتأويلها لاثبات شرعية الحق والوجود فى ارض فلسطين. هذا مع ملاحظة ان اثاريى فلسطين قد حرموا من التنقيب الاثرى فى معظم ارضهم وبالتالي استحوذ الاسرائيليون على المشهد الاكاديمى بصورة شبه كاملة. ومنذ انشاء الدولة العبرية عكف الباحثون فى الآثار والتاريخ القديم على انتاج معرفة يؤكدون من خلالها على احقية المستوطنين اليهود فى ارض الميعاد واحياء العصية اليهودية ومن ثم تحديد خصائص الهوية الثقافية كما وردت فى القصص التوراتى. وجد البحث الاثرى الدعم المادى والمعنوي من اجهزة الدولة ومن المؤسسات الخارجية المؤيدة لاطروحة حق اليهود الدائم فى

الأرض العربية. ومع البث الاعلامي الكثيف ونشر الوعي بالاثار واهميتها فى برامج التعليم اكتسبت المواقع الاثرية من مدن واثار منقولة محفوظة فى المتاحف قوة رمزية ساعدت فى توحيد شتات المهاجرين. وبالتالي نالت الاثار حيزا مهما فى الفضاء الاجتماعى والسياسى والفكرى الاسرائيلى. وفى نفس الوقت يجري تدمير الاثار العربية والمقدسات الاسلامية لطمس الهوية العربية الاسلامية وانكار لوجودها التاريخي.

هناك نماذج اخرى يستدعى فيها الماضى البعيد لاجل ترسيخ اصول الهوية الثقافية فى المجتمعات المتجانسة وتذكير الناس باهمية وحدتهم عند حلول الازمات السياسية والاجتماعية العابرة. ربما تكون الحالة المصرية افضل مثال فى هذا السياق. ففيها قامت كبرى حضارات العالم القديم التي اكتسبت شهرة عالمية بسبب خصائصها الباهرة فى العمارة والفنون و العلوم التطبيقية واللغة والادب. وظلت الحضارة المصرية موضوعا اكاديميا فى جامعات ومعاهد العالم كما هى تمثل المورد الاقتصادى الحيوى للدولة وافراد المجتمع بحكم الطلب السياحي المتزايد. ان الطابع الثقافى المصرى الغالب حاليا هو الانتماء العربى والاسلامى اضافة للمؤثرات الغربية التى وفدت فى العصر الحديث. ومهما يكن من امر فقد ابرزت كثير من الابحاث ان التراث المصرى القديم يظل ورقة سياسية بالغة الاهمية. وفى اثناء فترة مقاومة الاحتلال الاجنبى كانت خطب السياسيين تستدعى شواهد التاريخ القديم ورموزه لاشعال جذوة الوطنية وشحذ همم المصريين لتحقيق استقلال بلادهم من ربة الاستعمار. ويورد المؤرخون كيف استخدم قادة ثورة 1919 تاريخ مصر القديم لحياء الذاكرة وكان الزعيم سعد زغلول يخاطب المصريين بأنهم ورثة اعظم حضارة فى العالم ويطلب منهم التمسك بالوحدة. واشتهرت فى ذلك الوقت مصطلحات بين الثوار مثل نحن ابناء الفراعنة واحفاد بناء الاهرامات... الخ. وربما هى مستمرة حتى الان. لم يكن السياسيون هم وحدهم الذين استلهموا العبر من الماضى البعيد فقد الف شعراء كبار امثال البارودى وحافظ ابراهيم واحمد شوقي القصائد فى تمجيد ماضى مصر وطالبوا باستعادته وتمجيده. كذلك كتب نجيب محفوظ

"بعث الاقدار" و "كفاح طيبة" كما كتب توفيق الحكيم " عودة الروح". والشاهد فى كل ذلك ان التاريخ القديم يمكن ان يتسرب الي حاضر الامة ويندمج ضمن مكونات هويتها الثقافية.

فى ضوء ما سبق من امثلة اختتم بالنظر فى تاريخ السودان القديم وحضوره اليوم فى ذاكرة عامة الناس او استخدامة بشكل او اخر فى قضايا المجتمع مثل حوارات الهوية الثقافية والوحدة الوطنية ومساهمة شعوب السودان القديم فى مجمل التطور الحضاري فى المنطقة بدأ العمل الاثاري فى السودان منذ مطلع القرن الماضي وقام به الاجانب ومنهم من كان يعمل فى الادارة البريطانية او فرق علمية جاءت من الخارج. وبمرور الوقت ازداد الاهتمام باثار السودان وتاريخه القديم الذى كان ينظر اليه فى ظل الحضارة المصرية القديمة . وبعد التوسع الهائل فى المسح والتنقيب الاثاري ابان حملة انقاذ اثار النوبة خلال عقد الستينات اتضح قدم وتنوع الحضارة السودانية القديمة. وتمكن الباحثون من تحقيق مفاصل هذه الحضارة فى تسلسل زمني محكم بدءا من اقدم عصور ما قبل التاريخ حتى قيام الممالك التاريخية الشهيرة وما اعقبها من اثار المسيحية والاسلام . بات واضحا تميز الحضارة السودانية بخصائص وسمات محلية مع وجود ادلة لمؤثرات وافدة تم استيعابها فى نسيج التجربة المحلية. وبعد ذلك امتد البحث الاثاري فى وسط البلاد بواسطة فرق اجنبية ومحلية ولكنه حتى اليوم ظل محصورا بصورة مكثفة فى الشمال مما شكل (مركزية شمالية) فى النظر الى تاريخ السودان القديم. ومؤخرا جرت محاولات محدودة فى البحث عن الاثار خارج نطاق هذا الاطار الجغرافي ومع قبول هذه الاضـاءات التى اضافتها الا ان هذه المحاولات غير كافية لمدنا بصورة متوازنة تعبر عن طبيعة الحضارة وتاريخها فى معظم مناطق السودان .ومن جهة اخرى لم تحظ الاثار الاسلامية بعمل اثاري مطلوب اذ ان البعثات الاجنبية العاملة بالبلاد لم تهتم الا بعدد محدود من المستوطنات الاسلامية فى شمال السودان.اما فى بقية انحاء السودان فالبحث فى المواقع الاسلامية يكاد يكون محدودا للغاية فيما عدا

اشارات لاثار سواكن و سنار او ما جمع من نقوش او شواهد قبور مصحوبا بوصف عام لقباب مدافن الفقهاء والشيوخ. هذا وقد ظلت اثار السلطنات الاسلامية فى كردفان ودار فور بغرب السودان بعيدة عن اهتمام الباحثين. ان هذا النقص يؤثر سلبا بطبيعة الحال فى رؤيتنا الكلية لتاريخ السودان القديم والوسيط ومن ثم استيعابه و الاستفادة منه فى صوغ اطروحة متماسكة عن مكونات الثقافة السودانية او تناول قضايا حيوية تمس حاضر المجتمع.

ومهما يكن من امر فمعرفة اليوم بحضارة وتاريخ السودان القديم افضل بكثير مما كان عليه الحال قبل سنوات قليلة. لقد تم الكشف عن مدن ومنشآت تميزت بمخططات هندسية رائعة ووجد فيها ما يدل على جودة الحرف والصناعات التى مكنت سكانها من التكيف على بيئاتهم الطبيعية المتنوعة. وتشير الادلة الى ان سكان السودان القدماء فى عصورهم المتعاقبة قد ابدعوا العمارة الهندسية والنظم السياسية والادارية والفكرية ما يعكس قدرات عالية فى تنظيم الحياة المجتمعية.

كيف ينظر السودانيون الى تاريخهم القديم ورموزه المادية المتمثلة فى الاهرامات والمعابد والقصور والكنائس و ما تحتوية المتاحف من كنوز؟ الاجابة على هذا السؤال صعبة فى الوقت الحاضر بسبب عدم توفر الدراسات المتعمقة فى هذا الخصوص كما ان هنالك تحولات قد حدثت فى مجالات التعليم والاعلام ولا يعرف على وجه التحديد اثر هذه التحولات فى العودة الى التراث الثقافى المادى. هناك من المؤشرات ما يدلنا على ان الوعي بالاثار والتاريخ كان ضعيفا منذ بداية الكشف عن ملامحه الاولى ولم يتم استخدامه فى الخطاب السياسى ابان مقاومة الاستعمار لنيل البلاد استقلالها. فالحركة الوطنية كان وقودها الشعر والادب والرغبة فى تحقيق الكرامة والانعقاد من المستعمر. واستمرت قطاعات مقدرة من النخب المتعلمة تنتظر للتاريخ القديم كشيئ بعيد عنها حيث يصعب الانتساب المباشر اليه. كذلك لم يجد الارث الحضارى ورموزه المادية الطريق الى انتاج الادباء والشعراء فيما عدا حالات نادرة. ففى الستينات من القرن

الماضي برزت حركة ثقافية و سياسية مشروعاها الاساسي كان البحث فى هوية السودان الثقافية. وعبر هذه الحركة انطلقت حوارات الهوية التي تبلورت فيما اطلق عليه اطروحة الغابة والصحراء وتصوراتها لاصول الهوية السودانية المتأرجحة بين الافريقية والعروبة. اطلق مؤسسو تلك الحركة عليها اسم "ابادماك" الاله الاسد فى ديانة الحضارة المروية اشارة منهم للجذور الافريقية لحضارة السودان. استمر جدل الهوية يخبو ويستعر وفقا لمجريات الاوضاع السياسية والاجتماعية. ولابد من القول ان الانتاج العلمي حول اثار وتاريخ السودان القديم قد توسع كما ازداد الاهتمام بانشاء الاقسام فى الجامعات السودانية وبذل الجهود الرسمية فى رعاية الاثار التى تحدها دائما الامكانيات المادية وتأهيل الكادر الوطني العامل فى حقل الدراسات الاثرية. ويجدر الاشارة فى هذا المقام الى ابحاث ومقالات رصينة نشرت فى الالونة الاخيرة تناولت موضوعة الاثار وقضايا الثقافة السودانية وكذلك دور الاثار فى معالجة مسالة الوحدة الوطنية والانتماء الاقليمي.

فى الوقت الذي تهتم فيه الدول باثارها وحمايتها بالدراسة وتطوير سبل تقديرها للمواطنين وترويجها سياحيا كمورد اقتصادي مهم ينصرف البعض فى السودان الى العودة الى الاثار بطريقة غير منتجة. تمثل ذلك فى الدعوات الجهوية والاثنية لاحتكار التراث الاثري ورفض نصيب الاخرين فيه. لا يختلف اثنان حول مضار التوجه لاستغلال التاريخ القديم لتحقيق اهداف بعيدة عن القومية وتمتين العروة الوطنية . ويبدو ان العودة للماضي البعيد وتجييره لمصلحة فئات معينة جاء فى ظروف سياسية واجتماعية غير ايجابية لجأ فيها الناس لأطر ومرجعيات اولية كالقبيلة والهوية العرقية.

وفى الالونة الاخيرة ولاسباب سياسية عابرة سرت رؤية تمجد تاريخ السودان وحضارته تبنتها الاجهزة الرسمية وقطاعات شعبية وبلغ الحديث ذروته بالقول ان اثار السودان هى الاقدم فى العالم. و ليس لدينا اليوم من الادلة ما يدعم هذا القول. وفى العام المنصرم دشّن وزير الاثار ما اطلق عليه "المبادرة الوطنية حول

السودان اصل الحضارة" تبع ذلك سيل جارف من الكتابة والتعليقات فى الفضاء الاسفيري عن تبني هذه الفكرة وهى فى معظمها تبث معلومات ملتبسة وخاطئة نختم بالقول بأننا اليوم فى حاجة ماسّة لمراجعة هذه المواقف والبحث عن فهم مشترك لواقعنا التاريخي والثقافى والعودة اليه من مدخل موضوعي من اجل تحقيق اهدافنا الوطنية الايجابية.